قسم الفلسفة السنة الدراسية 2023-2024

المستوى السنة الثانية ليسانس

L.M.D S3

المقياس: الفكر الخلدوني

الأستاذ: قريمس فؤاد

المحاضرة الثانية

مفهوم العصبية عند ابن خلدون (1)

مقدمة:

شغل موضوع العصبية حل الباحثين الذين اهتموا بفكر ابن خلدون إذ حاولوا – بكاملهم – إيجاد تعريف لها وتحديد مفهوم دقيق وواضح لهذه الكلمة التي أضحت تحمل معان عديدة، وتتباين صورها ، كلما نظر إليها من زاوية معينة المختلف عن غيرها. ومع هذا بقيت الكلمة لغزا يبحث باستمرار عن إجابة مقنعة .على الرغم من أن معظم الباحثين في علوم التاريخ والاجتماع والفلسفة : سعوا كلهم إلى فك سر الكلمة[1].

إن نظرية العصبية من أهم وأَطْرَف النظريات التي وضعها ابن خلدون، نستطيع أن نقول إنها بمثابة المحور الذي يدور حوله معظم المباحث الاجتماعية، وتتصل به جميع مباحث «الاجتماع السياسي».

في المقدمة لا يستطيع القارئ أن يحصل على فكرة تامة عن نظرية العصبية بقراءة فصل واحد أو بضعة فصول من المقدمة؛ لأن ابن خلدون يبني هذه النظرية بالتدريج، ويكوِّن هذه الأنظومة قسمًا بعد قسم، شأن جميع المفكرين الذين يضعون النظريات المفصَّلة، ويؤسِّسون الأنظومات الكبيرة.

---

[1] بوزيان الدراجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء فكر الخلدوني ،دار الكتاب العربي، ط1، 2003، ص19.

"ولكي نحصل على فكرة تامة عن هذه النظرية الاجتماعية والأنظومة السياسية، يجب أن نستعرض ما جاء في معظم فصول البابين الثاني والثالث، وفي أحد فصول الباب الرابع، حول العصبية، وعلينا أن نمعن النظر بوجه خاص في الفصول التالية:

من الباب الثاني: الفصل الذي يقرر "أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية"، والفصول الخمسة التي تليه (ص127–34 1)، ثم الفصل الذي يقرر "أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك" (ص139–140).

ومن الباب الثالث: الفصل القائل "إن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية"، والفصول الستة التي تليه (ص154–162)، ثم الفصل الذي يقرر "أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها دولة"، والفصل الذي يليه (ص164–167)، ثم "الفصل الباحث في أحوال الموالي والمصطنعين في الدولة" (ص184)، وفصل حقيقة الملك (ص187)، ثم فصل "كيفية طروق الخلل للدولة" (ص294).

ومن الباب الرابع: فصل "وجود العصبية في الأمصار" (ص 377)."[2]

مفهوم العصبية عند ابن خلدون:

يرى الجابري، "أن العصبية ليست كلمة من المصطلحات التي ابتكرها ابن خلدون فلقد كانت شائعة الاستعمال في اللغة العربية، خاصة بعد الإسلام الذي صرف معناها إلى دلالة التنازع والفرقة والاعتداد بالأنساب، وذلك مقابل الدين الذي يدعو إلى الوحدة والتآخي وتآلف القلوب، لقد استقر في أذهان الجميع بعد الإسلام أن العصبية دعوة مفرقة تقوم على تناصر فريق ضد أخر في حالة النزاع والخصام، مما يذكي نار الفتنة ويشعل الحرب بين القبائل ولم يكن هذا التناصر العصبي أو النصرة القبلية يستهدف دائما إقرار الحق أو إنصاف المظلوم بل كان يستهدف مؤازرة المتعصب له سواء كان ظالما أو مظلوما"[3].

---

[2] ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ، مؤسسة هنداوي، 2021، ص299.

[3]محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط6، 1994،ص 166.

وفي هذا المعنى ورد في لسان العرب لابن منظور أن العصبية: "هي أن يدعوا الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوؤهم ظالمين كانوا أو مظلومين، واعتصبوا: صاروا عصبة، وقد تعصبوا عليهم إذ اجتمعوا، فإذا تجمعوا على فريق أخر، قيل: تعصبوا"[4]. والعصبية مؤنث العصبي والتعصب، وحقيقة العصبية، الخصلة المنسوبة إلى العصبة وهي قرابة الرجل من قبل ابيه"[5]

وقد اشتق لفظ العصبية partikularismus، لغويا من اللاتينية،partie, pars ، ومن هذه الكلمة (العصبية) يفهم الإنسان "الميل ومحاباة فريق أو حزب بدون مراعاة لمصلحة المجموع، ولأسباب اجتماعية يحب الإنسان أسرته، ويختص عشيرته بعونه ومساعدته، وكثيرا ما يكون هذا الحب أو تلك المساعدة ضد صالح الآخرين.[6]

يستعمل ابن خلدون حسب الجابري العصبية تارة بمعنى الرابطة القبلية المشار إليها، وتارة بمعنى الجماعة البدوية التي تجمعها هذه الرابطة نفسها، أما الجابري فيستعمل كلمة عصبة للدلالة على الجماعة القبلية التي تقوم على الرابطة العصبية، سواء كانت هذه الجماعة على مستوى القبيلة أو مستوى فرع من فروعها[7].

والعصبية بالمفهوم الاصطلاحي تتجاوز مدلولها اللغوي، فهي عند ابن خلدون يمكن استخلاصها من الفصل السابع والثامن والتاسع من الباب الثاني من المقدمة، فترد إلى الفطرة العمياء من أجل الحاجة إلى الأعوان للسيطرة، يقول (هي نزعة طبيعية بمعنى فطرية بين البشر مذ كانوا)، أي قبل أن يصبح للناس مثلا عاليا وقيما دينية وأخلاقية لان هذه النزعة تحمل على التعاضد والتناصر الغريزي فتختلف قوتها بقدر حاجة الغريزة إليها، وتعتمد على تبرير النسب من اجل سيطرة الغريزة وتكثير الأتباع، ومن هنا يؤكد ابن خلدون على وهمية النسب، كونه حقيقة معنوية وعبارة عن مجرد قناعة ذاتية، لا حقيقة واقعية، يقول: (المعنى الذي... به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة)، ولهذا يكثر مدعي القرابة لمن حوله عشرة

---

[4] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، الجزء 36، دار المعارف،ص 2966.

[5] بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، ص605.

[6] علي مظهر، العصبية عند العرب(في الجاهلية والإسلام حتى زوال دولة بني أمية من المشرق)، شركة مساهمة ليفون، مصر،1964, ص 6 .

[7] محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق 167.

كبيرة، وكلما كثر الأتباع زاد عدد مدعي التبعية والنسب، وبرروا سلوكهم بالقرابة من أجل السيطرة والتقاط الغنائم"[8]

والعصبية قوة طبيعية متطورة ومتحركة غير ساكنة فهي المولد الدائم للصراعات والمنازعات ولا تظهر بصورة واحدة، إذ هي متعددة الوجوه، ويشتد مفعول العصبية كلما ضاق مجال رباطها فهي قوية في الأسر أكثر من قوتها ضمن العشيرة والقبيلة، وهكذا كلما بعدت اللحمة ضعفت حدة العصبية، والعصبية تجري نحو الملك لأنه غاية لها ولكنها تعجز عن الاحتفاظ به بسبب ما يكمن فيها من سلبيات وبسبب ظهور عصبية أخرى مقاومة لها، وهذا لا يتحقق إلا بواسطة القوة والغلبة المنطويان على القتل والدمار واندثار المآثر الحضارية وزوال المعالم العمرانية المتطورة، فالعصبية شكلا من أشكال الالتحام القائم على النسب الذي يحمي ذوي القربى فلا يعتدي أحد على الأخر، بل يجد كل منهما الآخر في وقت الشدة، يقول ابن خلدون، "فإذا كان النسب المتواصل بين المتناحرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها ، أن العصبية في نظر ابن خلدون تمثل وازعا يربط القبائل البدوية فيما بينها من اجل الملك والقهر والاستيلاء على ملكيات القبائل الأخرى ولصد الاعتداءات الخارجية، فهي بمثابة الدرع الحصين لهم.

ان ابن خلدون يتخذ رابطة العصبية موضوعا لدراسة شاملة وعميقة، يستعرض أشكالها وصورها المختلفة ويتتبع الأدوار التي تلعبها في حياة المجتمعات بوجه عام وفي حياة الدولة بوجه خاص.

وقد أثار تعريف ابن خلدون للعصبية اهتمام علماء علم العمران، فوضعوا لها تعريفات مختلفة منها: العصبية عند "روزنتال" هي القوة الحيوية لصيرورة الدولة، وعند "دي سلان" روح التضامن، وعند توينبي "هي الجبلة النفسية التي تنبني عليها كل الأحزاب السياسية وكل الأجهزة الاجتماعية، أما عند "هلموت ريتر" فيرى أن العصبية هي الفضيلة حسب ميكافيلي ويعني القابلية الفطرية السياسية والعمل القتالي، ومن تعريفاتها أيضا: "الوطنية" و "الوعي الوطني" و "العاطفة الوطنية" و "الروح العام" و "والتضامن الاجتماعي" و"إرادة جماعية" و "والتضامن بمعناه القوي جدا"[9].

---

[8] علاء زهير عبد الجواد الرواشدة، نظرية العصبية قراءة معاصرة في مقدمة ابن خلدون، دورية كان التاريخية، السنة الرابعة، العدد 11، مارس 2011، ص 18.

[9] علاء زهير عبد الجواد الرواشدة، نظرية العصبية قراءة معاصرة في مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق ص 18.

يتضح من هنا أن العصبية عند ابن خلدون هي الأساس الذي تتبني عليه العلاقات بين أبناء القبيلة الواحدة سياسيًا ومجتمعيًا، وهي شعور التضامن الذي نشأ على أساس رابطة القرابة؛ وهذا الشعور يؤدي إلى المحاماة والمدافعة حين يكون هنالك داعٍ للتعصب.

العصبية عند ابن خلدون لا تنشأ من رابطة الدم فقط؛ إنما عن طريق التعايش والمرافقة والمعاشرة اليومية؛ فالشخص يفقد شخصيته الفردية ويشعر بأنه جزء لا يتجزأ من أهل عصبته.

ظهرت كلمة عصبية، مبكرا في الأدب العربي وهي مثبتة في الأحاديث الشريفة، وبالتالي فالعصبية لا تعني عاطفة أو سلوكا نفسيا، بل تعني واقعا اجتماعيا وسياسيا معقدا جدا، ولكن نتائجها النفسية هامة.

قائمة المصادر والمراجع:

1_ بوزيان الدراجي، العصبية القبلية ظاهرة إجتماعية وتاريخية على ضوء فكر الخلدون ،دار الكتاب العربي، ط1، 2003.

2_ ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ، مؤسسة هنداوي، 2021.

3_ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط6، 1994.

4_ ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، الجزء 36، دار المعارف.

5_ بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977.

6_ علي مظهر، العصبية عند العرب(في الجاهلية والإسلام حتى زوال دولة بني أمية من المشرق)، شركة مساهمة ليفون، مصر ،1964.

7_ علاء زهير عبد الجواد الرواشدة، نظرية العصبية قراءة معاصرة في مقدمة ابن خلدون، دورية كان التاريخية، السنة الرابعة، العدد 11، مارس 2011.